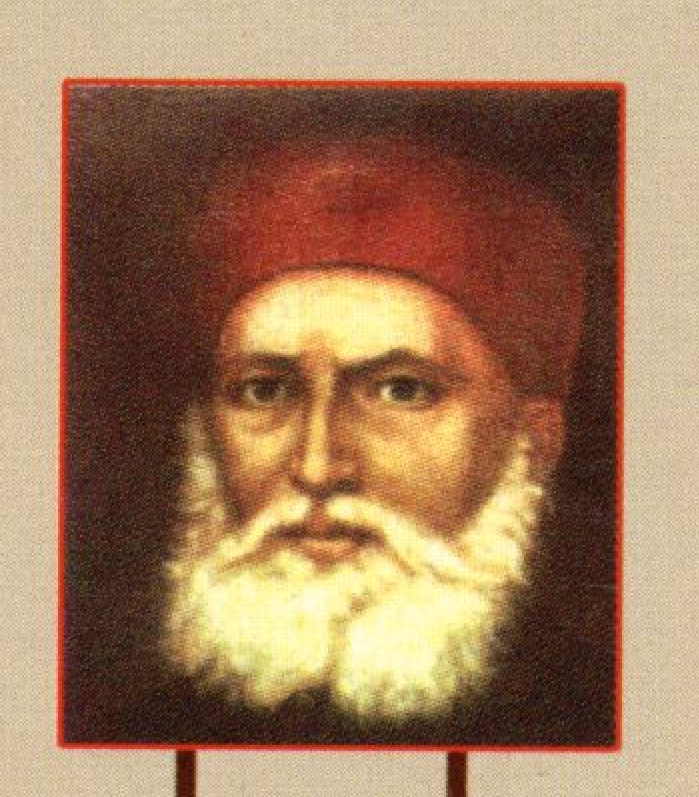
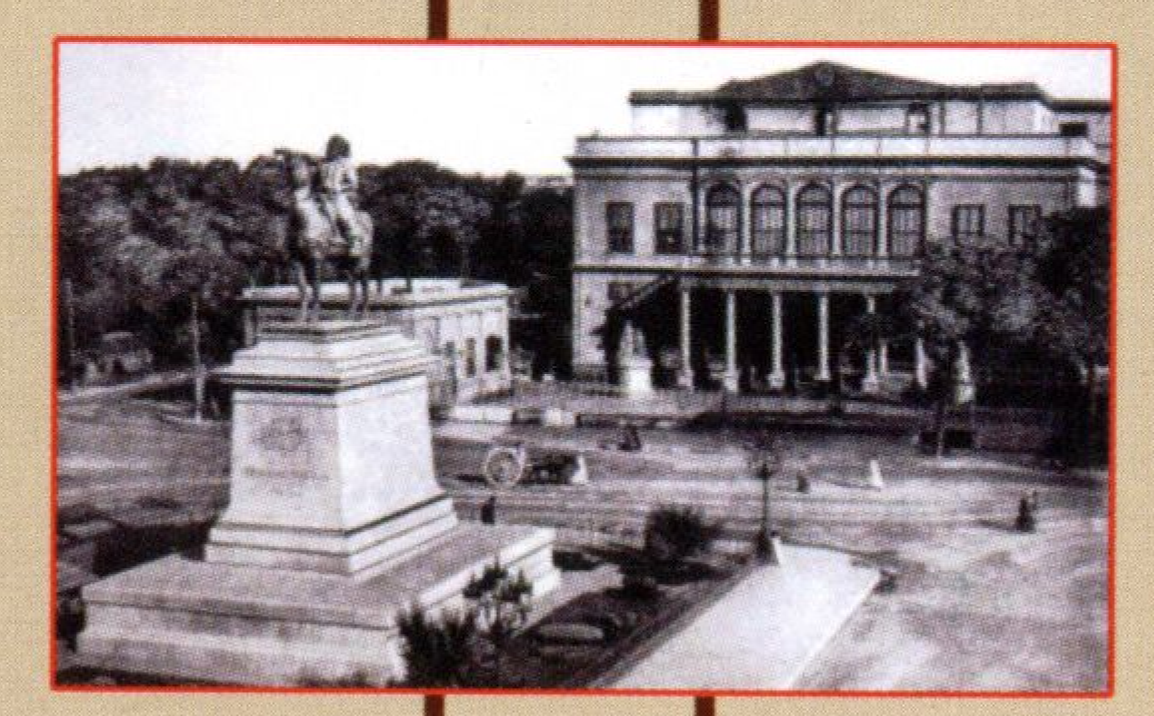
بطل مصر

ابراهيم باشا





د: أحمس حسن صبحي

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
القاهرة

7

بطل مصر

(إبراهيم باشا)

د. أحمد حسن صبحي

صبحي، أحمد حسن
بطل مصر: إبراهيم باشا/ أحمد حسن صبحي. ط١- القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٥٩ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمــــك: ٨ ٩٦٩ ٢٨٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مصر - تاريخ - العصر الحديث - إبراهيم باشا (١٨٤٨ -١٨٤٨م)
٢- إبراهيم باشا، إبراهيم بن محمد بن علي، (١٧٩٠ - ١٨٤٨ م).
٩٦٢,٠٣٣

أ. بطل مصر (إبراهيم باشا)

رقم الإيــــداع ١١٤٩٣ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي 8 - 969 - 287 - 977 -978

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ - ٢٧٩٥٤٢٢٩

فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

بسم الله الرحمن الرحيم

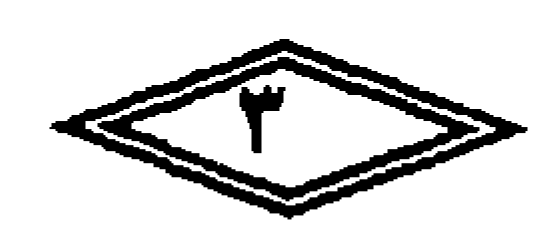
تقديم

لكل أمة فى تاريخها أبطال، رفعوا إسم بلدهم عاليا بما حققوه من بطولات فى مختلف الميادين، لكن أسمى أنواع البطولة، هو أن يجود الإنسان بحياته من أجل بلده.

لقد أنجبت أرض مصر أبطالا على مرّ تاريخها الطويل فى شتى الميادين، من قواد للجيوش، وملوك، وأطباء وعلماء، وأدباء وشعراء، وعلوم فقه ودين، وفنون على اختلاف ميادينها، كل منهم فى مجاله. لكن خير الأبطال هو من استطاع أن يرفع علم مصر عاليا، يحيل المستحيل ممكنا، ويصنع النصر من دماء الهزيمة.

كان إبراهيم باشا، قائد جيوش مصر فى عصر أبيه محمد على باشا، هو بطل مصر بلا منازع. كان إسمه كفيلا فى ساحة الوغى أن يدخل الرعب فى قلوب أعدائه، وأن يدفع بالطمأنينة فى قلوب جنوده.

عاش إبراهيم باشا، ابن والى مصر، بين جنوده كواحد منهم، ينام كما ينامون فى حياتهم، ويأكل معهم طعامهم. كان يتقدمهم فى الحرب، يعطى جنده المثل فى الشجاعة والإقدام، لا يبالى بالأخطار، شعاره النصر أو الشهادة.

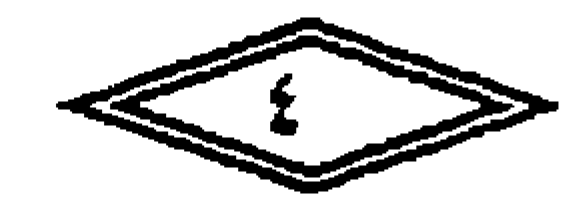


آمن بمصر وباللغة العربية وبالقومية العربية، كانت آرائه هى ضرورة إيجاد وحدة تضم الأقطار العربية فى أمة واحدة. نداء يظل أملا وغاية لكل الناطقين بلغة الضاد. إن دل ذلك الفكر على شئ، فإنما يدل على فكر ثاقب وبعد نظر جاء منذ قرنين من الزمان، فى زمن لم تعرف فيه الأقاليم الناطقة بالعربية شكل الدولة بعد. كانت دعوة إبراهيم باشا غير قائمة على تعصّب دينى، وهو المسلم الحريص على دينه، بل كانت دعوة تقوم على وحدة اللغة والأرض والمصير الواحد. كان ذلك الفكر هو نتاج فتوحاته فى الأقاليم العربية، ينشر فيها العدل والرحمة، يحاول أن ينظم شئونها لتواكب التحديث الذى كانت مصر تشهده خلال تلك الفترة على يد أبيه محمد على باشا.

إن سيرة إبراهيم باشا الذاتية لا تتضح إلا من خلال سنوات حياته التى عاشها فى ميدان الوغى، فهى الشاهدة على تاريخ ذلك الرجل العظيم. تولى ولاية مصر فى عهد أبيه محمد على باشا بعد مرضه، ومات قبل موت أبيه، فلم يستمر فى الحكم طويلا.

قال البارون الفرنسى " بوالكونت " يصف إبراهيم باشا:

– إن محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق، أما إبراهيم باشا فإنه أقرب إلى المبادئ الحرة. وقد خالف أباه فى مسألتين جوهرتيين: لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذى اتبعه فى مصر وسوريا ولو أنه نفذ فى هذا الصدد



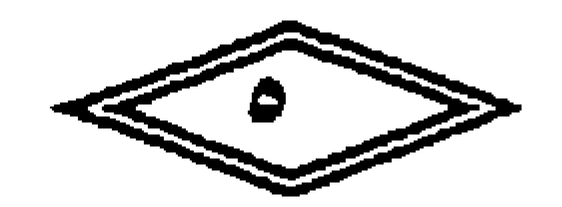
أوامر أبيه. أما المسألة الأخرى أنه كان يجاهر برأيه فى إحياء القومية العربية.

وقال البارون الفرنسى أيضا عن إبراهيم باشا:

- إن فكرة إبراهيم باشا أن يجعل من الإمبراطورية المصرية التى أسسها أبوه، دولة عربية بحته، يكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس وأحد وأمة واحدة. وأن يعيد إلى القومية العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها.

مات إبراهيم باشا وهو لم يكمل الستين سنة من عمره، ولم يمهل مصر القدر، لكى يتمكن ذلك البطل من تحقيق أفكاره بالشكل الذى سعى إليه. لقد كان إبراهيم باشا بحق هو بطل مصر فى تاريخها الحديث. رحمه الله.

* * *



١

جاء المدرس مع طلبته إلى القاهرة. وقف وحوله شباب مصر، ينظرون إلى تمثال إبراهيم باشا وهو راكب فوق حصانه يشير بأصبعه إلى الأمام.

قال المدرس:

– هكذا كان بطل مصر إبراهيم باشا دائما. أمام جنده يشير إليهم بأن يتقدموا للنزال،لا يهابون عدوا كان المثل للجندى، وهو القائد ابن الوالى الباشا، فى اقتحامه للصفوف المعادية. كان القائد المتروى الحصيف، الواثق من إيمانه، وروح جنوده المؤمنة بالنصر، الذى يخطط لكل معركة بظروفها، فيعد وسيلة الهجوم حتى يتحقق لجيشه النصر.

استكمل أستاذ التاريخ حديثه بعد ثوان من الصمت يقول:

– أعتقد أن إبراهيم باشا، كان هو القائد الوحيد على مر العصور فى كل جيوش الدنيا، الذى كان يصر على

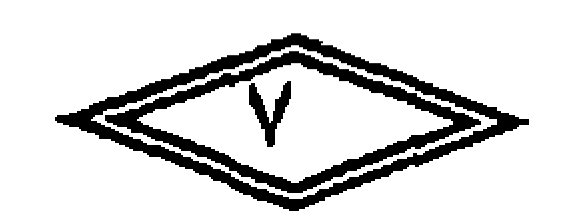
أن يتناول طــعامه كما يتناوله أصغر جندى فى جيشه. وكان الوحيد الذى ينام كما ينام الجنود. كــان الفارق الوحيد، هو خيمة القيادة التى كــان يرسم فيها خططه، وفى وسطها مقعد عــال،يجلس فوقــه عند لقائه بالسفراء أو رسل الجيوش التى يحاربــها. أما حياته العادية فكانت وسط صفوف جنوده.

قال أحد الطلبة يسأل مدرّسه:

- أرجو أن تحدثنا يا أستاذ عن إبراهــيم باشا وأعماله عندما تولى حكم مصر.

قال المدرس:

- قلت لكم أن إبراهيم باشا تولى الحكم فى مصر أثناء حياة أبيه محــمد عــلى باشا الذى أصيــب بمرض عضال أثر على كفاءته العقلية نتــيجة الاكتئاب الذى أصيب به بعد (معــاهدة لندن) التى قيّدت من حريته فى استكمال تحديث مصر،ومــا جرّه اعتــماده على الوعود الفرنسية فى مــساندته، مــن فقدان مــصر للأراضى التى فتحتها بدماء أبنائها البواسل. وللأسف الشديد يا أبنائى، فإن حكم إبراهيم باشا لم يستمر إلا لعدة شهور فقط، مات بعدها وأبوه لا يزال على قيد الحياة، وتولى عباس باشا الحكم، وهو ابن طوسون باشا بن محمد على باشا، كــان عباس هو أكبر سلالة محمد على باشا سنًا،



أكبـــر من عمه سعيد باشا بـــن محمد على باشـــا. ذلك كان هو نـــظام الوراثة بيـــن الملوك.

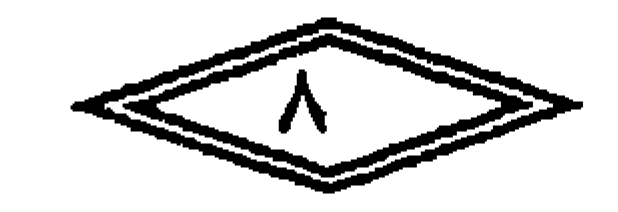
استطرد المدرس فى حديثه قائلا:

- إن تاريخ إبراهيم باشا، يسطر من خلال الحروب التى خاضتها مصر خلال تلـــك الفترة الهامة مـــن تاريخها. انتصر الجيش المصرى الذى يقوده إبراهيم باشا فى كل مواقعه التى خاضها شمالا وجنوبا، شرقا وغربا. كان ذلك القائد يـــدرك شـــدة بأس جنـــوده، وكـــان الجنـــود يؤمنون بمقـــدرة وشجاعة قائدهم، يحبونه ويحترمونه فقدموا له الطاعة، فقادهـــم إلى النصر.قلت لكم مـــن قبل أن إبـــراهيم باشا كانت له آراء خاصة به فى طرق الحكم، مـــثل معارضـــته لإجراء أبيه باحتكار الأرض والمحاصيل، لكـــنه لم يكن ليعارض تنفيذ أوامر أبيه محمد علـــى باشا. كما كان لإبراهيم باشا رأى فى ضرورة إيجاد نوع مـــن الوحدة العربية أساسها اللغة التى تتحدث بـــها أقاليم العرب.

قال التلميذ يسأل أستاذه:

- ولماذا لم يقم إبراهيم باشا بتنفيذ ما اعتقده عندما تولى الحكم؟

قال الأستاذ:



- ما الذى يمكن أن يفعله حاكم خلال شهور قليلة؟ ولا تنسوا أن أباه محمد على باشا كان لا يزال على قيد الحياة. ولا تنسوا أن معاهدة لندن،قيدت إلى حد كبير حرية حركة والى مصر. لماذا لا نبدأ بالحديث عن تاريخ ذلك الرجل العظيم، ونستعيد أمجاد أجدادنا الفلاحين المصريين الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم "خير أجناد الأرض"، فجاء إبراهيم باشا وأثبت لكل الدنيا صدق ما قاله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم.

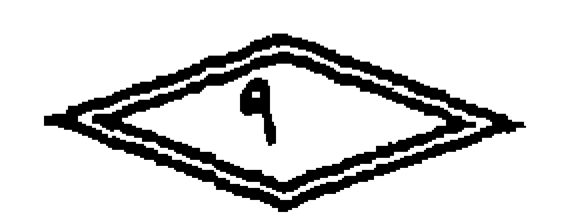
قال الطلبة:

- تفضل يا أستاذ.

قال لهم أستاذهم:

- هيا بنا إلى القلعة، لنزور مسجد محمد على باشا، ونترحم عليه وعلى ابنه قائد جيش مصر وبطلها إبراهيم باشا.

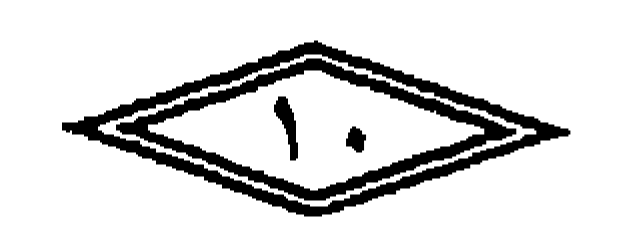
* * *



2

بدأ إبراهيم باشا خدمته لمصر وهو لم يبلغ من العمر سوى سبعة عشر عاما. أخذ رهينة لدى السلطان العثمانى عام ١٨٠٦ لحين وفاء محمد على باشا بدفع الجزية التى حددها له السلطان نظير توليته على حكم مصر. كان الفكر العثمانى هو الاحتفاظ بالإبن الأكبر لمحمد على باشا فى الأستانة لفترة يتم فيها شحن عقله بأفكار الخلافة العثمانية وزرع الولاء للسلطان فى عقله، لكن مصرية إبراهيم باشا وحبه لمصر، جعله يذيق السلطان العثمانى وجنده نار الهزائم الواحدة تلو الأخرى.

عندما تأزم موقف الجيش المصرى فى حرب الوهابيين، قرر محمد على إرسال حملة جديدة للإنهاء على الوهابية، عقد لواءها لابنه إبراهيم باشا عام ١٨١٦ بعدما بلغ عمره سبعة وعشرين عاما. واجه إبراهيم باشا فى حصاره للدرعية، عاصمة الوهابيين موقفا لا يستطيع غيره من الأبطال مواجهته بشجاعة وثبات. فقد انفجر مستودع ذخيرة الجيش المصرى فى معسكره المحاصر للمدينة،



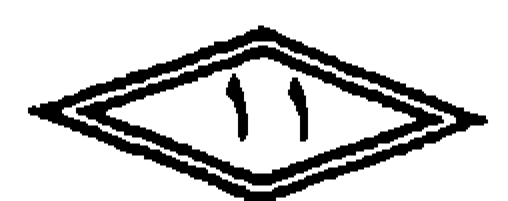
وأصبح الجيش بلا ذخيرة إلى جانب ما يعانيه من نقص الغذاء والماء وعواصف الصحراء. قال إبراهيم باشا لجنوده.

– لقد فقدنا كل شئ،ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا فلنتذرع بها ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض.

ظل إبراهيم باشا وجنوده يقاتلون حتى دان لهم النصر وانتهت الحرب بهزيمة الوهابيين.

عندما أحس الوهابيون بالهزيمة، آثر زعيمهم عبد الله بن سعود التسليم، فتلقاه البطل إبراهيم باشا بالحفاوة والإكرام وتم الاتفاق على تسليم الدرعية وتعهد إبراهيم باشا بالإبقاء عليها وإطلاق الحرية للوهابيين، على أن يسافر ابن سعود إلى القاهرة ثم إلى الآستانة كما طلب السلطان. وعندما وصل ابن سعود إلى القاهرة عام ١٨١٨، تلقاه محمد على باشا فى قصره واكرم مثواه. وعندما رحل كبير الوهابيين إلى الأستانة، أعدمه السلطان العثمانى.

كافأ السلطان العثمانى إبراهيم باشا بعد الحرب الوهابية فمنحه ولاية جده، وكان البطل قد نشر السلام فى ربوع الجزيرة العربية. وعاد إبراهيم إلى القاهرة فى نهاية عام ١٨١٩ فاستقبله شعب مصر فى احتفالات هائلة استمرت سبعة أيام بلياليها، اعتزازا ببطل مصر الذى أعطى شعبها فخرا حُرموا منه لقرون طويلة، وأطلقوا عليه لقب (بطل الحجاز).

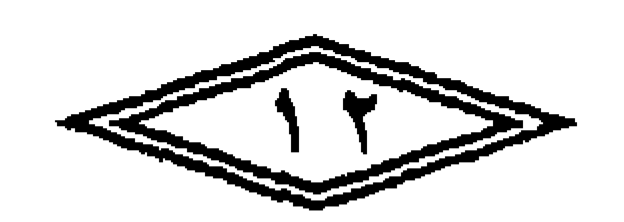


وعندما تأزم موقف الجيش المصرى أثناء فتح إقليم السودان عام ١٨٢١، بعث محمد على باشا بابنه إبراهيم باشا بالمدد والدواء على رأس قوة صغيرة، فأعاد إلى الجنود المصريين روحهم المعنوية، وأعد خطة الزحف مع أخيه إسماعيل باشا على الأجزاء الجنوبية من الإقليم. حال المرض الذى ألم بالبطل إلى عدم استكمال زحفه على شاطئ النيل الأبيض، فترك قيادة جيشه إلى محمد بك الدفتردار، وعاد هو إلى مصر بعد شهور من وصوله إلى السودان.

كانت الحروب الوهابية، هو ذلك الحقل الذى أبرز كفاءة إبراهيم باشا العسكرية، متمثلة فى شجاعته ورباطة جأشه وحكمته فى مواجهة العوامل المختلفة التى تطرأ على سير المعارك، فيستطيع أن يتغلب عليها.

لم يطرأ أى تغيير على سلوك إبراهيم باشا منذ بلوغه سن الثامنة عشر من عمره. كان محبا للنظام، للعمل بإخلاص وتفان، أصبح مضرب الأمثال بين شعب مصر. لم يتخلى أبدا عن تواضعه، وبعده عن الترفع على من يعمل معهم، فنال من حب وتقدير الشعب ما لم ينله قائد فى التاريخ كله.

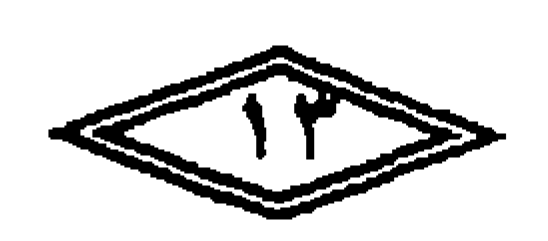
بدأ إبراهيم باشا حياته فى خدمة مصر عام ١٨٠٧، عندما عينه أبوه محمد على باشا دفتردارا لمصر. كان ذلك المنصب يماثل وزير المالية فى العهود الحالية، فبدأ عمله



بهمة ونشاط فى رسم وتقدير مساحة أطيان القطر المصرى ورسم خرائطها وتحديد زماماتها فى كل مديرية من مديريات مصر. كما حدد الأراضى البور. ولعل تلك الخرائط، كانت هى الأساس الذى اعتمد عليه محمد على باشا فى إنشاء الترع و تنظيم الرى بمديريات مصر.

لقد كان فى تداخل تاريخ هذا البطل العظيم، مع تاريخ الفترة التى حكم فيها أبوه محمد على باشا، ظلما كبيرا لذلك البطل إبراهيم باشا. فمن المعروف تاريخيا، أن إبراهيم باشا كان يحترم أباه احتراما يفوق الوصف، مطيعا له فى كل أوامره، وإن كان لا يتفق معه فى إقرار بعضها، لكنه كان مطيعا فى تنفيذها. لقد نسبت كل أفكار وأفعال بطل مصر إبراهيم باشا، إلى أبيه محمد على باشا. ولم ينفرد تاريخه سوى بحروبه وقيادته لجيش مصر فى فتوحاته وانتصاراته.

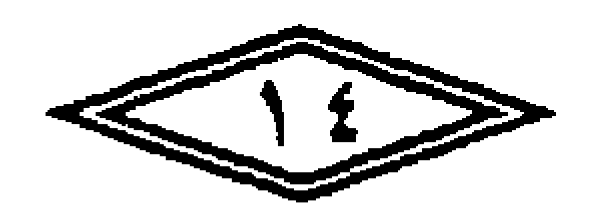
ويمكن باستقراء التاريخ المتداخل لمحمد على باشا، وابنه البطل إبراهيم باشا،أن نضع أيدينا على بعض أعماله التى لم يظهرها تاريخ مصر صراحة ووضوح. كان فكر إبراهيم باشا، هو الاعتماد على المصريين فى بناء أمتهم، واهتمامه وتمسكه بالدين الإسلامى الذى يعتمد فى فهمه على اللغة العربية، فجاءته أفكار القومية العربية وترسخت فى ذهنه، فآمن بالفكرة وعمل على ترسيخها.



وكانت مهمته فى مسح أراضى القطر المصرى وتجواله فى كل أراضى القطر واختلاطه بالفلاحين المصريين، هى أساس حبه لهذه الأرض وهؤلاء الناس البسطاء المطحونين بواسطة طبقة الملتزمين والملاك. ومن المتصور أن ذلك البطل العظيم قد نقل إلى أبيه صورة حقيقة لمعاناة الفلاح المصرى في حياته، وظلم الملتزمين لأولئك الفلاحين، مما دعا محمد على باشا لإصدار قراراته باحتكار الأراضى الزراعية وإلغاء امتيازات الملتزمين، وجعل العلاقة بين الفلاح المصرى والحكومة علاقة مباشرة.

كان الفلاحون المصريون يزرعون الأرض التى خصصت لهم، على أن يسددوا أثمان البذور والضرائب إلى الحكومة. وقد واجه الفلاحون صعوبات جمة فى الحصول على المال لتسديد الضرائب إلى الحكومة، فأصدر محمد على باشا قراره بإعفاء الفلاحين من دفعها فى السنوات الأولى لحيازتهم الأرض. ومن المتصور أن ذلك القرار لم يصدر إلا بعد تدخل إبراهيم باشا، الذى يدرك حقيقة الفلاح المصرى الذى عايشه لفترة طويلة وهو يشرف على تحديد مساحة الأراضى الزراعية ورسم خرائطها وتقرير مقدار ضرائبها.

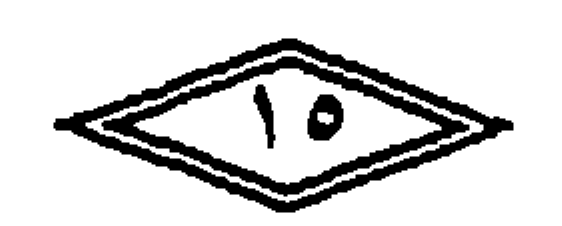
عندما اشتدت القلاقل التى أوجدها المماليك فى الصعيد، قام محمد على باشا بتعين إبراهيم باشا حاكما للصعيد إلى جانب منصبه "دفتردارا" لمصر. قاتل إبراهيم باشا المماليك



فى مناوشاتهم للسلطة المصرية، لكن تلك المناوشات لم تكن حروبا بالمعنى المعروف، فلم يتسن له أن يطلق عبقريته الحربية، لكنه استفاد من أسلوب الكرّ والفرّ الذى يجيده العربان المنضمين إلى المماليك فى مناوشاتهم للحاميات المصرية بالصعيد.

اختلط إبراهيم باشا أثناء وجوده بالصعيد، بأبناء الإقليم وخبرهم بنفسه، تطبيقا لمبادئه ومعتقداته فى حب المصريين وضرورة الاعتماد عليهم فى بناء هذه الأمة العظيمة.كان أول ما فعله أثناء سفره إلى أرض الجزيرة العربية لقتال الوهابيين، أن قام بتجنيد ألفين من أبناء الصعيد فى قنا،قبل سفره منها إلى" القصير"، متجها إلى الحجاز على متن الأسطول. آمن إبراهيم باشا بأن أبناء مصر هم النواة الحقيقة لجيش مصر الذى كان يحلم بإنشائه، واستطاع أن يحققه بالفعل -اعتمادا على أبناء مصر.

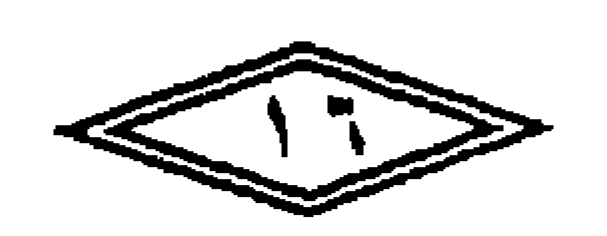
وإيمانا بمبادئه فى إنشاء ذلك الجيش، كان أول ما فعله إبراهيم باشا بعد وصول جيشه إلى "جدة "، أن قام بتدريب الجنود المصريين من أبناء الصعيد هناك لمدة عدة شهور. لم يرم بهم فى أتون الحرب مباشرة وهم غير مؤهلين، بل صبر على الاشتراك فى الحرب حتى تمكن من تدريب هذا الحشد المصرى الأول من جند إبراهيم باشا، تدريبا ممتازا جعلهم يحرزون النصر فى ميدان



الوغى. كان إبراهيم باشا يطبق النظام العسكرى بصرامة، ويطبقه على نفسه أولا، فيعيش عيشة الجندى البسيط فى مأكله ومنامه، ويقاسم جنوده السرّاء والضرّاء، ويشاركه شظف العيش، وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرا على قدميه ليعطى جنوده المثل فى احتمال شدائد الحروب ومتاعبها. كان ذلك الخُلق هو السبب فى تعلق جنود مصر بقائدهم إبراهيم باشا والاستبسال فى المعارك والقتال تحت رايته.

جمع إبراهيم باشا إلى جانب الشجاعة والذكاء الحاد وصدق النظر، الرغبة الشديدة فى الأخذ بأسباب تقدم الأمم الأوروبية. وكان من مزاياه البساطة فى معيشته والابتعاد عن مظاهر الفخفخة والأبهة، وكان هذا الخلق نادرا بين قواد الشرق وأمرائه الذين كانوا يحيطون أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة، لكن إبراهيم باشا كان على حظ كبير من عظمة النفس، ولم يكن فى حاجة إلى العظمة المصطنعة.

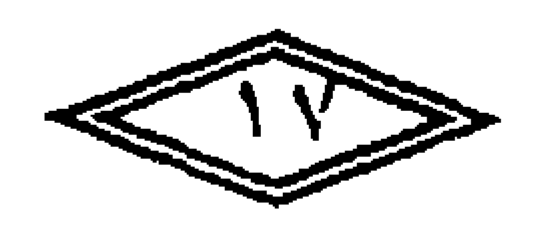
ذاعت شهرة إبراهيم باشا فى أوروبا، فنال فيها مكانة عالية بما اشتهر به من بطولة ونافذ بصيرة وشجاعة حربية. فعندما اعتلت صحته عام ١٨٤٥، سافر إلى أوروبا للعلاج. زار ايطاليا ثم فرنسا فقوبل بأعظم مظاهر الحفاوة والإجلال، ثم سافر إلى لندن عام ١٨٤٦ فاستقبلته الملكة فيكتوريا وعظماء الانجليز بالترحاب والاحترام.



وقد ظهرت كفاءة إبراهيم باشا الإدارية فى تنظيم الحكم المصرى فى سوريا، فقد أشاع الأمن فى ربوعها وانتظمت الإدارة. وقد تمسك بطل مصر فى المهام الإدارية التى تولاها فى مصر. بالحرص على النظام الذى كان أحد أهم صفاته فى الحرب والسلم على السواء.

واهتم إبراهيم باشا فى أوقات السلم، بالشئون الزراعية وتنظيمها، وامتاز بميله إلى تنسيق الحدائق وتنظيم أشجارها ونباتاتها فى صفوف متوازية وكأنها صفوف من جنوده فى ميدان الحرب.

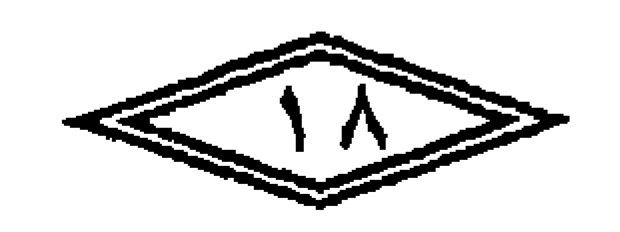
* * *



3

شبت الثورة فى بلاد اليونان عام ١٨٢١، وكانت ولاية اليونان تابعة للسلطان العثمانى، فقام الثوار اليونانيين بالهجوم على الحاميات العثمانية ونكلوا بالعثمانيين تنكيلا عظيما. وكانت السفن اليونانية اشد ضراوة فى هجومها على السفن العثمانية، فاستغاث السلطان العثمانى بمحمد على باشا لإرسال أسطول مصر لـتأديب السفن اليونانية التى اتبعت وسيلة جديدة فى نسف السفن العثمانية باختراع المركب الصغيرة المليئة بالمواد الملتهبة ثم إشعالها واصطدامها بالسفينة الحربية فتحرقها.

وبعثت مصر بأسطولها إلى شبة جزيرة المورة لمطاردة السفن اليونانية. وامتدت الثورة اليونانية إلى جزيرة كريت، فأمر السلطان محمد على باشا بإخمادها وتمكن المصريون من إنقاذ الحملة العثمانية فى الجزيرة بعد قتال ضارى ضد ثوار كريت. وانتهى الأمر عام ١٨٢٢ بضم جزيرة كريت إلى ولاية مصر.



وعندما شعر السلطان العثمانى بعجزه عام ١٨٢٣ عن إخماد ثورة اليونانيين، أصدر فرمانا لمحمد على بتعيينه واليا على شبة جزيرة الموره، ويدعوه إلى إخماد ثورة اليونانيين. أراد السلطان بذلك الفرمان إشراك محمد على باشا فى حرب اليونان، وصرف نظره عن استكمال بناء الجيش المصرى القوى الذى بدأت تظهر ملامحه بعد القضاء على ثورة الوهابيين، ثم إخضاع جزيرة كريت.

رأى محمد على باشا فى الفرمان الخاص بشبه جزيرة الموره، أنه فرصة مواتية لمد نفوذ مصر إلى اليونان، وإعلاء لشأنها. كما خشى الوالى الباشا أن يقوم السلطان العثمانى بعزله عن ولاية مصر إن امتنع هو عن الاستجابة لمطلب العثمانيين.

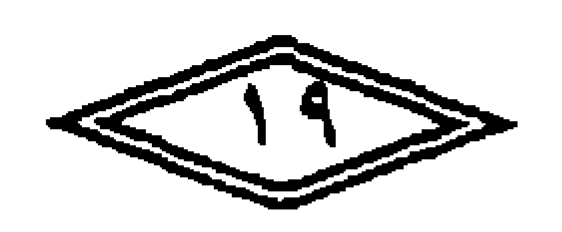
نادى الوالى ابنه إبراهيم باشا وقال له:

- سوف نحارب اليونانيين الثائرين ضد السلطان تنفيذا للفرمان الصادر إلينا.

قال بطل مصر:

- أمرك يا أبتاه. هل يكون لى شرف الاشتراك فى الحملة؟

قال محمد على باشا:

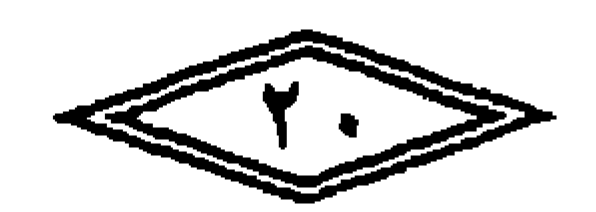


- لقد عينتك قائدا للـــجيش المصرى فى هذه الحرب. أعد جيشك من الجند والمؤن والذخيرة، سوف تشارك البحرية فى نقل جنودك. عينت الأميرال إسماعيل بك قائدا للأسطول المصرى،لكن قـــيادة الحملة برا وبحرا لك يا بُنىّ.

أعد إبراهيم باشا جيشه من ١٧ ألف مقاتل يساندهم أربع بلوكات من المدفعية وسبعمائة من الفرسان مجهزين بالمدافع والبنادق، نقلتهم عمارة بحرية مصرية مكونة من ١٤٦ سفينة نقل تحرسها ٥١ سفينة حربية.

أقلعت العمارة المصرية فى يوليه ١٨٢٤، والتقت بالأسطول العثمانى المكلف بمطاردة السفن اليونانية فى بحر الأرخبيل وتطهيره من القراصنة وإخماد الثورة فى الجزر. ولقد قوبل الأسطول المصرى بحرب السفن اليونانية فى هذا البحر الزاخر بالجزر الصغيرة التى تلجأ إليها مراكب اليونانيين الصغيرة. كان من نتيجة قتال الأسطول المصرى مع تلك الحرّاقات اليونانية، غرق سفينتين حربيتين مصريتين.

أدرك إبراهيم باشا أن هزيمة اليونان لن تكون أبدا على ظهر البحر، وأن خير وسيلة هى القضاء على الثورة برّا فى شبة جزيرة المورة، فاقلع بالأسطول إلى جزيرة "كريت" ينتظر وقتا مناسبا للإقلاع إلى شبه جزيرة الموره.

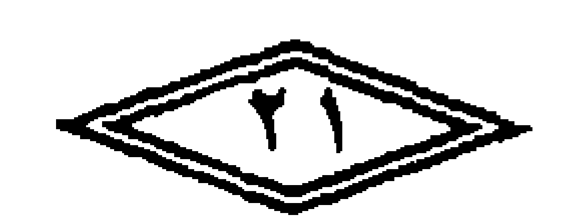


وجاءت الفرصة عندما ثار البحارة اليونان على قوادهم المختلفين فلم يحصلوا على أجورهم.

كان الثوار فى اليونان قد احتلوا كل المدن فى شبه جزيرة الموره عدا مدينة "مودون" جنوب شبه الجزيرة، وميناء "كورون" الذى كان اليونانيون يحاصرونه. وصل إبراهيم باشا إلى "مودون" فأنزل قواته من السفن بها، ثم اختار نخبة من رجاله، قادهم إلى ميناء "كورون"، وهزم الثوار المحاصرين للميناء، وأنقذ الحامية العثمانية الموجودة بها.

استعد إبراهيم باشا باشا لفتح "نفارين"، معقل الثوار اليونان، فبعث بطل مصر بفرقة من جنده لحصار المدينة. وقد لاقى الجيش المصرى المحاصر لميناء "نوارين" الأهوال من المقاومة العنيفة للحصار. صفّ إبراهيم باشا جنده الموجودين فى "مودون"، وسار بهم إلى "نوارين". قابل هجوم الثوار أثناء زحفة، فرقة يونانية من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل يونانى، فهزمهم وأسر قائدهم وبدّد شملهم، وحاصر مدينة "نوارين".

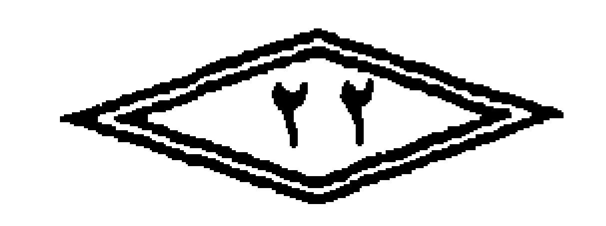
جاء إلى "نفارين" تسعة آلاف مقاتل يونانى، لرفع الحصار عنها وهزيمة الجيش المصرى. ترك إبراهيم باشا قوة صغيرة بالمدافع لحصار المدينة، وسار بجيشه لملاقاة جيش الثوار. صف بطل مصر جنوده على ترتيب محكم وأمرهم بالثبات فى مواقعهم وعدم إطلاق النار حتى يصدر



إليهم أوامره. عندما صار العدو على بعد مائة متر، أصدر إبراهيم باشا أوامره، فأطلقوا النار دفعة واحدة، وقامت صفوف ثانية من ورائهم بإطلاق النار، فحصد الرصاص صفوف اليونانيين المهاجمين حصدا، فاختلت صفوفهم، ولاذ من نجا منهم بالهرب إلى الجبال.

جاء انتصار إبراهيم باشا الحاسم في هذه المعركة، بما غنمه من الغنائم وما أخذه من الأسرى وفيهم كثير من قادة الثورة اليونانية، ليرفع من شأن الجندى المصرى الذى يحارب لأول مرة فى أوروبا، التى تختلف عن آسيا وأفريقيا. كانت إنسانية إبراهيم باشا وأبناء مصر، بالغة التأثير فى اليونانيين، إذا أنهم لم يرتكبوا شيئا من الفظائع، بل أحسنوا معاملة الأسرى، وقام الأطباء المصريون بتضميد جراح وعلاج جرحى اليونانيين.

شدد إبراهيم باشا حصاره على نوارين، لكنه اقتنع بضرورة الاستيلاء على جزيرة "اسفاختريا" التى تحجب الميناء وتركيب المدافع بها لمنع وصول أى مدد بحرى إلى المدينة. وتمكن ١٢٠٠ جندى مصرى تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوى من الاستيلاء على الجزيرة بعد قتال شرس مع اليونانيين. ولما يئس الثوار فى نفارين من وصول أى مدد إليهم سلموا المدينة إلى إبراهيم باشا، فدخلها يوم ١٨ مايو ١٨٢٥ فى يوم يعد من أعظم أيام انتصارات جيش مصر، وجعل اليأس يدب فى صفوف ثوار اليونان.

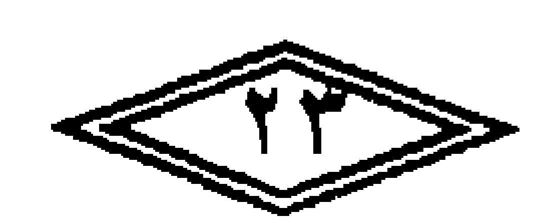


واستطاعت السفن اليونانية خلال القتال فى "تفارين" من الهروب من الميناء، لم يستولى المصريون إلا على سفينتين فقط.

أبحر ذلك الأسطول اليونانى إلى ميناء "مودون"، الذى كان الأسطول المصرى راسيا فى مياهه وأشعلت الحرّاقات النار فى بعض السفن المصرية، وكانت الرياح شديدة، فامتدت النار إلى سفن أخرى وامتدت النار إلى المدينة فالتهمت جزء منها ومن بينها مـــخازن البارود فنسفتها. وقعت هذه الحادثة أثناء حصار إبراهيم باشا لمدينة "نوارين"، لكنه لم يفت فى عضد بطل مصر، بل استمر فى حصار المدينة حتى دخلها.

سار إبراهيم باشا بجيشه وسط الجبال يقاتل الثوار حتى فتح مدينة "كلاماتا"، ثم مضى منها إلى مـــدينة "تريبوتسا" فى قلب شبه جزيرة الموره، ففتحها بعد أن هزم الثوار بها، وفرّ أهل المدينة منها بعد أن أحرقوها ولجأوا إلى الجبال. ثم احتل مدينة "تبراس"، فصارت شبه جزيرة الموره فى قبضة الجيش المصرى عدا مدينة "نويلى" عاصمة الحكومة الثورية فاستعد بطل مصر لحصارها.

فى الوقت الذى كانت المدن اليونانية تسلم لإبراهيم باشا بعد قتال شديد، كان رشيد باشا قائد الجيش العثمانى يحاصر مدينة "ميسولونجى" الاستراتيجية ولا يستطيع أن يهزم الثوار فيها، فاستنجد بإبراهيم باشا، الذى جاءه المدد



من مصر. ترك بطل مصر حاميات عسكرية فى المدن التى استولى عليها، وسار بجيشه قاصدا مدينة "ميسولونجى" فى فبراير عام ١٨٢٦ وحاصرها برّا وبحرا. استولى على الجزر المحيطة بالميناء، ومنع بذلك وصول أى مدد للمدينة، تماما كما فعل عند فتح "نوارين".

رفض الثوار عرض إبراهيم باشا بالتسليم حقنا للدماء، وحاولوا الخروج ليلا من المدينة، فحصدهم رصاص المصريين فعادوا إلى المدينة، فدخل وراءهم إبراهيم باشا ليستولى على المدينة. تجمع نحو ألفين من الشيوخ والنساء والأطفال الثوار فى مستودع للذخيرة، واشعلوا البارود فنسفهم نسفا. وهى عادة يهودية مشهورة منذ قدم التاريخ، بالانتحار الجماعى بدلا من التسليم فى الحرب. كانت "ميسولونجى" هى إحدى قواعد اليهود فى الدولة العثمانية.

أعد محمد على باشا مددا من خمسة آلاف جندى مصرى فى الإسكندرية كى يرسلهم إلى إبراهيم باشا بعد فتح "ميسولونجى"، وكان الأسطول المصرى قد عاد إلى الإسكندرية لإصلاح الأعطاب التى أصابته خلال القتال مع الحرّاقات اليونانية. وانضمت إلى الأسطول المصرى عدة قطع حربية جديدة تم بناؤها لتنضم إلى الأسطول المصرى. اقلع الأسطول المصرى المؤلف من ١٨ سفينة حربية وأربعين باخرة لنقل الجنود وست حراقات تم بناؤها بالإسكندرية ومعها عشرون سفينة عثمانية، للقضاء على



أعمال القرصنة اليونانية فى بحر إيجه التى أصبحت تهاجم السفن التجارية بعد أن قضى إبراهيم باشا على الثورة اليونانية فى البرّ.

دخل الأسطول المصرى والأسطول التركى إلى ميناء "نوارين" فى سيتمبر ١٨٢٧، رغم وجود الأسطول الانجليزى قريبا منه للعمل على منع دخول السفن المصرية للميناء،وإنزال المدد إلى إبراهيم باشا.

انضمت سفن فرنسا، ثم سفن روسيا، إلى الأسطول الانجليزى قرب "تفـــارين"، وأرســل الأميــرال "كودرنجتون" قائد قوات الحلفاء، إلى إبراهيم باشا يبلغه مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لندن، بوقف حركات القتال برّا وبحرا وأن سفن الحلفاء لديها مهمة بمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية إلى أى جهة من اليونان أو جزر الأرخبيل. وقد قابل قائدا الأسطوليين الفرنسى والانجليزى إبراهيم باشا عدة مرات فى محاولة لإرهاب إبراهيم باشا وتهديده للعودة إلى الاسكندرية، لكن بطل مصر قابل تلك التهديدات بالثبات ورباطة الجأش.

كان فرض شروط الحلفاء على مصر فقط، إذ انطلق الثوار اليونانيين مرة أخرى يناوشون الحاميات المصرية فى المدن المختلفة، كوسيلة لخلق ذريعة لكى يتحرك الجيش المصرى لنجدة حامياته. ولم يفت إبراهيم باشا

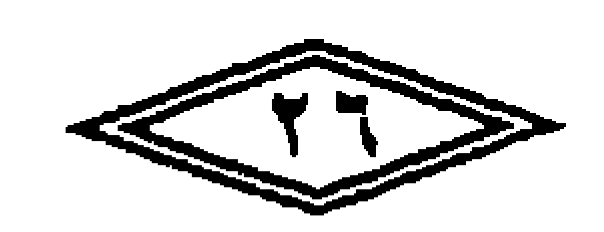


إدارك ذلك المغزى. قرر بطل مصر وهو يرى قوة ودراية أسطول الحلفاء أمامه، أن يلزم خطة الدفاع عن "نوارين".

جاء يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٢٧، فدخلت سفن الحلفاء إلى ميناء "نفارين"، وأخذوا الأسطولين المصرى والتركى على غرّة وحطموهما تماما. كان إبراهيم باشا، قد سار بجزء من جيشه برا فى منتصف أكتوبر، لنجده الحاميات المصرية فى شبه جزيرة الموره التى تتعرض لهجمات الثوار اليونانيين، الذين مكنتهم الهدنة التى فرضها الانجليز من إعادة تجميع صفوفهم، والحصول على السلاح من الحلفاء.

لم تقصر السفن المصرية فى تبادل الضرب مع سفن الحلفاء، أبدى رجالها بسالة فى القيام بواجباتهم، ولم يسلموا فى أية سفينة من سفنهم، واشتركت مدفعية القلاع فى القتال قدر استطاعتها، لكن ضرب الحلفاء كان اشد فتكا وأقوى أثرا، فدمّر معظم سفن الأسطول المصرى.

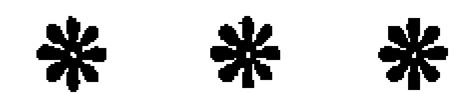
تعد موقعة "نفارين" إحدى وقائع الغدر ونقض العهود والمواثيق. فقد وقعت دون إعلان الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء. واتبع الحلفاء الغدر والغـيلة المنافية لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول فى تحطيم الأسطول المصرى. فقدت مصر أسطولها العظيم الذى أمضت السنين الطوال على مداها فى إنشائه.



علم إبراهيم باشا بما جرى فى "نوارين" فعاد إليها مسرعا يرى آثارها، وحزن حزنا شديدا، لكنه تمالك رباطة جأشه وأمر بإعداد بعض السفن بعد إصلاحها مؤقتا، وتعويم بعض التى غرقت، وإرسالها إلى الاسكندرية لاصلاحها.

وقرر إبراهيم باشا التزام خطة الدفاع، فأخلى مدن شبه جزيرة الموره، وحشد قواته فى مدينتى "كورون" و"مودون". وفى نفس الوقت، أعلنت روسيا الحرب على تركيا، وبعثت فرنسا بجيش جرّار إلى اليونان لمساندة الثوار. وظل إبراهيم باشا فى موقعيه، ينتظر تعليمات أبيه محمد على باشا، الذى كان يفاوض الحلفاء مباشرة، واتفق معهم على إخلاء جيش مصر لشبه جزيرة الموره.

استقبل إبراهيم باشا شروط اتفاق أبيه مع الحلفاء بسحب جيشه من اليونان بالسخط الشديد، وهو يرى أن جهود جيشه ضاعت إلى جانب الخسائر التى تكبدتها مصر وخاصة ضياع أسطولها. أصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية من الحاميات المصرية والسير إلى الثغرين اليونانيين حيث الجيش المصرى، وأقلعت بهم السفن عائدين إلى مصر فى أكتوبر ١٨٢٨.





4

انتهت السيطرة العثمانية على اليونان، وخرجت الدولة العثمانية من حربها مع الثوار خائرة القوى، ثم اشتبكت مع روسيا فى الحرب عام ١٨٢٩، فزاد ضعفها. وانتشرت الفتن داخل الإمبراطورية العثمانية كمقدمة لتقسيمها بين دول أوروبا، وأطلق على الدولة العثمانية إسم (الرجل المريض).

كان الجيش العثمانى يعتمد أساسا على الجنود (الإنكشارية) وهم تلك الطبقة من الرقيق الذين تربوا عسكريا فى الدولة العثمانية من مختلف الشعوب الذين فتح الترك بلادهم. يأسرون الأطفال، ثم يعلمونهم الجندية، فيصبحوا جنودا فى جيش السلطان العثمانى. ومن ينبغ منهم ينال حريته ويترقى فى سلك الجندية. رأى السلطان العثمانى أن السبب الرئيسى فى هزيمته عسكريا، هو وجود الانكشارية فى الجيش العثمانى. قرر السلطان التخلص من الإنكشارية فكلف حسين باشا بإبادة الجنود الإنكشارية، وعينه قائدا للجيش. واستطاع حسين باشا فى خلال أشهر



قليلة من التخلص من تلك الفئة فأطلق عليه لقب (قاهر الانكشارية).

كانت عيون محمد على باشا مثبته على سوريا، يريد أن يضمها إلى مصر لعدة أسباب، أولها أن تكون حاجزا بين الدولة العثمانية وبين مصر، مع إدراكه أن السلطان العثمانى يتحين كل فرصة للتخلص من محمد على باشا، الذى يدرك أيضا أن سوريا هى الطريق الطبيعى لأى غزو لمصر.

وكان محمد على باشا يحتاج إلى أخشاب سوريا وفحمها ونحاسها، لاستكمال بناء جيش مصر بالشكل الذى يخطط له. كانت تلك الموارد متوفرة فى سوريا فإذا ما ضمها إلى حكمه، فلن تحتاج مصر حينئذ لاستيرادها من تركيا.

وأراد محمد على باشا بضم سوريا أيضا، استكمال سيطرته على المنطقة بعد أن سيطر على الجزيرة العربية وضم إقليم السودان إلى مصر. أراد الوالى محمد على باشا أن تصبح مصر إمبراطورية كبرى تخضع لحكمه، وهو الذى أدرك بحسه السياسى مدى التردى الذى وصلت إليه الإمبراطورية العثمانية المتهالكة.

ظل محمد على باشا ينتظر الفرصة المناسبة لفتح سوريا. جاءته الفرصة عندما طالب والى صيدا أن يعيد له ستة آلاف فلاح مصرى كانوا قد هاجروا إلى سوريا هربا من شظف العيش فى مصر، فرفض عبد الله باشا والى

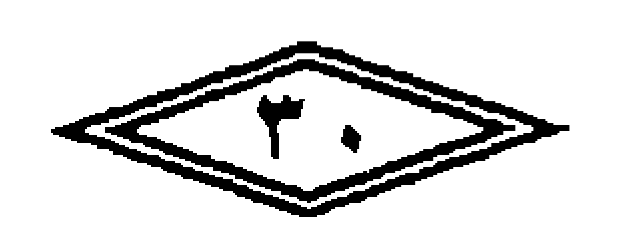


صيدا إعادتهم. فكانت فرصة محمد على باشا التى يريدها مواتية. قرر دخول سوريا لاستعادة المصريين بها. استدعى بطل مصر إبراهيم باشا، وعينه قائدا للحملة على سوريا.

بدأ إبراهيم باشا إعداد الجيش المصرى فى أوائل عام ١٨٣١، لكن الكوليرا التى ضربت مصر فى ذلك العام وقضت على أعداد هائلة من المصريين منهم خمسة آلاف جندى، أجبرت البطل على تأخير الزحف حتى يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٣١ حينما عادت الأوضاع إلى طبيعتها فى مصر.

تكوّن جيش إبراهيم باشا من ثلاثين ألف جندى ومعهم أربعين مدفعا للميدان وعدد آخر من مدافع الحصار. وقام الأسطول المصرى المكون من ١٦ سفينة حربية، وسبع عشرة سفينة لنقل الجنود، بحمل المدافع ونصف الجيش، وأبحرت بهم إلى حيفا.

سار الجيش البرّى من القاهرة فاحتل العريش ثم خان يونس فغزة، وكانت الحاميات العثمانية الموجودة فى تلك المدائن تفرّ بجنودها إلى عكا تاركين ذخيرتهم ومؤنهم، فيدخل الجيش المصرى إليها. واستأنف الجيش المصرى زحفه فاحتل يافا ثم سار إلى حيفا، حيث التقى بالنصف الآخر من الجيش الذى اقلته العمارة المصرية.



أصدر إبراهيم باشا أوامره بحصار "عكا" الحصينة، التى لم يستطع نابليون بونابرت أن يفتحها. قام الجيش المصرى بحصار المدينة المحصنة، وقام الأسطول بحصارها من البحر، وبدأ القتال يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٣١، واستمر لمدة ثلاثة شهور، دون أن يتمكن المصريون من فتح " عكا ". استطاعت مدفعية قلعة عكا أن تصيب بعض السفن المصرية بإضرار، فأمر إبراهيم باشا بعودتها إلى الإسكندرية لإصلاحها.

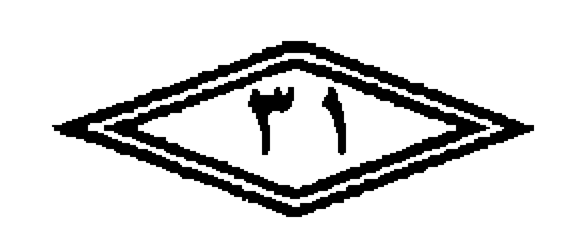
كان الحصار المصرى حول "عكا" محكما. فقام إبراهيم باشا بإرسال كتائب من الجيش لفتح مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس والقدس. كلما كان جيش مصر يصل إلى بلدة من بلدان، كانت المدينة تستسلم له دون قتال.

تعود ضباط وجنود جيش إبراهيم باشا، ان يتحدثوا بحرية وشجاعة مع بطل مصر الذى كان يشجعهم على ذلك. سأله أحد ضباطه أثناء الحصار على عكا:

– إلى أى مدى تصل فتوحات الجيش بعد استيلائنا على عكا؟

قال له إبراهيم باشا:

– إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى.



كان إبراهيم باشا، يجاهر علانية بأنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم بعد تخليصهم من قبضة العثمانيين، وإسناد المناصب إليهم سواء فى الإدارة أم فى الجيش، وأن يجعل منهم شعبا مستقلا يشركهم فى إدارة الشئون المالية، ويعوّدهم سلطة الحكم، فهم الذين يحتملون تكاليفه ويدفعون نفقاته.

سأله أحد جنوده:

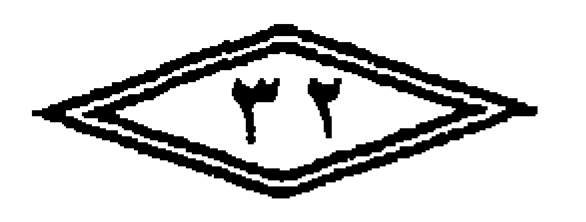
– كيف تطعن يا باشا فى الأتراك وأنت منهم؟

رد إبراهيم باشا يقول:

– أنا لست تركيا. لقد جئت مصر صبيّا ومنذ ذلك الحين قد مصّرتنى شمسها وغيرّت من دمى وجعلته دما عربيا.

أدرك السلطان العثمانى نيّة محمد على باشا فى احتلال سوريا، فأعلن عصيان والى مصر على السلطان، وخلعه من الولاية. قام العثمانيون بحشد جيش من عشرين ألف جندى، وضم إليه جموعا من الأكراد والعربان، وتقدم العثمانيون تجاه "طرابلس" يحاولون الاستيلاء عليها، لكن الحامية المصرية قاومت الهجمات التركية على المدينة.

قرر إبراهيم باشا أن لا ينتظر قدوم العثمانيين إلى عكا، بل مهاجمتهم. ترك جزء من الجيش المحاصر لعكا، وسار ببقية جيشه فى اتجاه "طرابلس" لإنقاذ الحامية

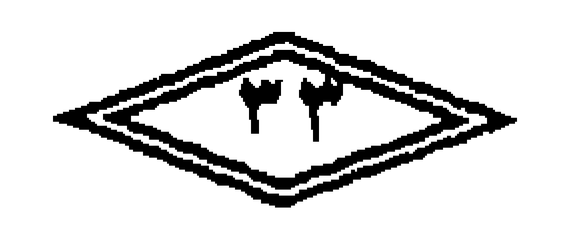


المصرية، وحينما اقترب منها، ارتد عنها الجيش العثمانى، فطارده إبراهيم باشا تجاه "حمص".

رأى بطل مصر أنه من الأوفق له أن يعود بجيشه إلى "بعلبك" ليتزود بالمؤن والذخيرة الكافية لقتال الجيش العثماني الكبير. وظن القائد التركى أن ارتداد إبراهيم باشا علامة على خوفه، فتقدم لمهاجمة الجيش المصرى فالتقى به فى سهل "الزراعة".

كانت المعركة بين الجيشين درسا، لقنه جيش مصر وقائده لجيوش العالم. فقد اصطف الجنود فى ثلاثة خطوط، ووضع إبراهيم باشا مدافعه خلف الخط الأول بحيث لا يراها العدو. عندما هجم العثمانيون على الجيش المصرى، تقهقر الصف الأول من الجند، وفتحت مدافعهم نارها على المهاجمين فتساقطوا كالذباب، ويهرب الباقون فى كل اتجاه،يطاردهم المصريون حتى نهر " العاصى " فغرق فيه من لم يستطع السباحة من العثمانيين. وتجمعت فلول العثمانيين الذين نجوا من المعركة فى مدينة "حماة" يطلبون المدد العثمانى.

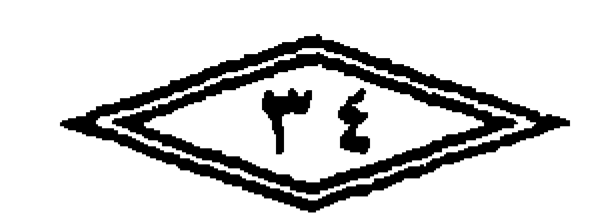
وانتهز عبد الله باشا الجزار والى عكا، خروج إبراهيم باشا بجيشه لمحاربة العثمانيين، ونقص عدد الجيش المصرى المحاصر لمدينته، فهاجم الجزار الجيش المصرى لعكا واستطاع الاستيلاء على الكثير من مدافعهم وأسلحتهم.



لم يهتم إبراهيم باشا بما حدث للجيش المصرى المحاصر لعكا، فقد كان فى فوزه على الجيش العثمانى تعويضا لما حدث. قرر أن يعود إلى عكا لفتحها قبل أن يتلقى الجيش العثمانى فى "حماه" المدد من الأستانة. جاء يوم ٢٧ مايو عام ١٨٣٢، عندما تم فتح ثغرتين كبيرتين فى سور " عكا " وثالثة صغيرة. هجم المصريون من الثغرتين، وتـردد الجنود فى اقتحـام الثالثة، فسار إليهم إبراهيم باشا شاهرا سيفه وتقدمهم فى دخول الثغرة، فدبت الحميّة فى جنده فدخلوا وراءه، ودار قتال رهيب فى المدينة حتى أيقن عبد الله باشا الجزار أنه لا طائل وراء القتال، فاستسلم لإبراهيم باشا مساء ذلك اليوم.

استقبل بطل مصر إبراهيم باشا حاكم المدينة عبدالله الجزار بالحفاوة والإجلال، وأرسله إلى الاسكندرية حيث أحسن محمد على باشا مثواه وأسكنه فى قصر خصص له.

أراح إبراهيم باشا جنده بعد القتال الشرس الذى انتهى بانتصارهم، ثم سار شمالا لفتح دمشق، ولم يقاوم أهل دمشق جيش بطل مصر، بل خرجوا لاستقباله وتقديم طاعتهم له. وكان سلوك جيش مصر مثاليا فى احترام حرية وممتلكات الأهالى، مما حبب الحكم المصرى إلى نفوس السوريين. وقام إبراهيم باشا بتعين أحد أبناء البلد حاكما لها، كما أنشأ ديوانا للمشورة من عشرين من أعيان دمشق لمساعدة الحاكم فى إدارة شئونها.



جن جنون السلطان العثمانى لوقوع "عكا" فى يد إبراهيم باشا، استدعى حسين باشا (قاهر الإنكشارية) وعينه قائدا لجيش عثمانى قوامه ستين ألف جندى، ووهب له ولاية مصر وكريت إذا هو قهر الجيش المصرى.

تقدم الجيش العثمانى العرموم حتى وصل إلى "انطاكية"، فقرر القائد العثمانى ان يرسل بجزء من الجيش إلى "حمص" والتحصن بها. انتهز إبراهيم باشا الخطأ الحربى الذى ارتكبه العثمانيون بتقسيم جيشهم، فهاجم الجيش العثمانى فى "حمص" واستطاع خلال أربع ساعات من القتال المستمر أن يهزمه شرّ هزيمة، تمثلت فى خسائر العثمانيين التى بلغت ألفى قتيل و٢٥٠٠ أسير فى حين خسر المصريون ١٠٢ قتيل و١٦٢ جريح فقط، ودخل المصريون "حمص" يوم ٨ يوليه ١٨٣٢.

سار حسين باشا بجيشه من "انطاكيـــة" قاصدا "حمص" فبلغته أنباء هزيمة الجيش العثـــمانى الثانى أمام إبراهيم باشا، فاتجه مع فلول جيش "حمص" إلى حلب واتخذها قاعدة له. وعندما بدأ جيش مصر الزحف تجاه حلب، انسحب العثمانيون إلى مضيق "بيلان" بجوار مدينة "الاسكندرونة" حيث أن طبيعة المنطقة تساعده على تحصينه بمنعة.

تقدم الجيش المصرى، فاحتل "حماه" ثم "حلب" بدون مقاومة. توافدت على إبراهيم باشا وفود البلاد المحيطة



بالمنطقة تعلن خضوعهم لحكم محمد على باشا. قام بطل مصر بدراسة أرض المعركة فوجد أن العثمانيين يحتلون قمم الجبال، فقام على رأس فرقتين من جنده بالالتفاف حول ميمنة الجيش العثمانى عن طريق صعود طرق وعره فى الجبال حتى تمكنوا من الإحاطة بالعثمانيين وأمطروهم بوابل من القنابل، فى الوقت الذى هجم فيه باقى الجيش على ميسرة العثمانيين، وتولت المدفعية المصرية ضرب الوسط.

سقطت "الأسكندرونه"، فسلمت "أنطاكية" و"اللاذقية" و"السويدية " لإبراهيم باشا، بعد أن خسر الجيش العثمانى فى تلك المعركة ٢٥٠٠ قتيل وأسر أربعة آلاف جندى عثمانى، فكانت نكبة الجيش العثمانى نكبة ساحقة، واختفى قائده ولم يُعرف له مكان بعد ذلك.

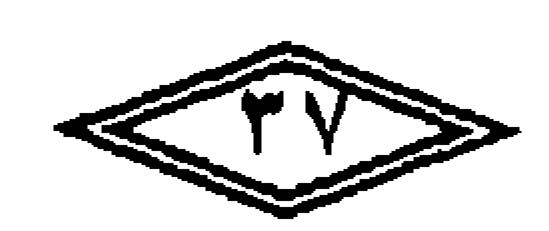
* * *



5

دانت أراضى فلسطين والشام لإبراهيم باشا، وتفرق شمل العثمانيين فأصبح الطريق مفتوحا أمام بطل مصر ليتوغل فى أراضى العثمانيين أنفسهم. اجتاز المصريون حدود سوريا الشمالية ودخلوا ولاية "أدنه" من بلاد الأناضول وعبروا نهرى "جيحون" و "سيحون". استولى إبراهيم باشا على مدينة "أدنه" واتخذها مركزا لتجميع قواته.

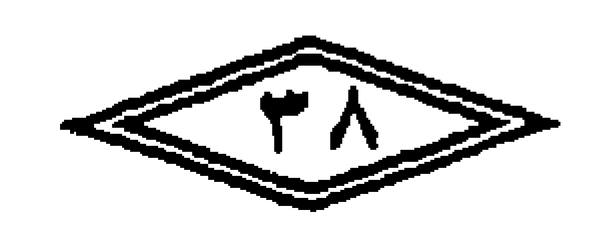
اختار السلطان العثمانى محمود، واحدا من خيرة قواد تركيا، محمد باشا رشيد، الذى اشترك مع إبراهيم باشا فى حرب الموره جنبا إلى جنب، فأصبح بعد أن عينه السلطان صدرا أعظما للجيش العثمانى، ينظر إلى حليفه السابق إبراهيم باشا، نظرته إلى ألد أعدائه. أعد السلطان جيشا عثمانيا جديدا قوامه ٥٣ ألف جندى، زودهم بالمدافع والذخائر واستعرضه بنفسه، وطلب من القائد أن يبيد الجيش المصرى وقتل إبراهيم باشا. وبدأ رشيد باشا زحفه على سهول الأناضول وجبالها للقاء الجيش المصرى.



لم يهدأ إبراهيم باشا بعد تمركز جيشه فى " أدنه "، بل بدأ زحفه فى الأناضول هو الآخر حتى بلغ مدينة "قونيه" فاتخذها إبراهيم باشا قاعدة عسكرية، يتأهب منها لملاقاة الجيش العثمانى. اشتبكت كتائب الجيش المصرى أثناء زحف إبراهيم باشا مع القوات التركية المنتشرة فى المدن التى سبقت " قونيه " وهزمتها، تفتح الطريق لجيش مصر حتى وصلها بعد أن أخلاها العثمانيون من غير قتال، فرارا من جيش مصر.

عندما استقر الجيش فى " قونيه "، بدأ إبراهيم باشا تدريب الجيش على خطط المعركة المتوقعة أمام تلك المدينة. يخرج مع أركان حرب الكتائب المختلفة، يدرس أرض المعركة ويرسم لكل وحدة مقاتلة مهامها، ثم يقوم كل قائد بتدريب جنده على المهام التى حددها لهم بطل مصر.

وصلت طلائع الجيش العثمانى إلى شمال " قونيه " يوم ١٨ ديسمبر ١٨٣٢، فقام إبراهيم باشا بمناوشتهم للاطلاع على مبلغ قوتهم، فآنس منهم ضعفا. أراد بطل مصر أن يجرهم للقتال، لكن القائد العثمانى تجنب القتال حتى يستكمل الجيش العثمانى قواته، فظل إبراهيم باشا يناوشهم على مدى يومين، يأسر بعض جنودهم ويستولى على أسلحتهم.



تقدمت جيوش رشيد باشا إلى " قونيه "، وأخذ كل من القائدين المصرى والعثمانى فى ترتيب مواقع جنوده. وجاء يوم ٢١ ديسمبر ١٨٣٢، وكان برد الشتاء قارسا والضباب يخيم على المنطقة، يحجب الرؤية عن أعين الجيشين فلا يرى كل منهما الآخر.

اتجه إبراهيم باشا إلى منطقة تقع على يمين الجيش العثمانى، وانقشع الضباب قليلا فرأى بطل مصر جيوش العثمانيين عن قرب، واعد خطته الجديدة بمهاجمة ميسرة الجيش العثمانى التى لمح فيها ثغرة تفصلها عن باقى الجيش.

اخترق إبراهيم باشا على رأس فرسان جيشه، تساندهم المدفعية المصرية، صفوف العثمانيين فاختلت صفوفهم، فتقهقر الترك وتفرقوا، فتابع المصريون الهجوم من الوسط حتى سلم العثمانيون سلاحهم. عندما رأى الصدر الأعظم ما حاق بميسرة جيشه، نزل بنفسه إلى الصفوف المقاتلة، فضلّ طريقة وسط الضباب، فأمسكه الجنود المصريون وساقوه إلى إبراهيم باشا أسيرا.

خلال تلك الأثناء، تعرضت ميسرة الجيش المصرى لهجوم عثمانى شديد، لكن المصريين استبسلوا فى الدفاع حتى انكسرت موجات الهجوم العثمانى وحاقت بهم الهزيمة بعد أربع ساعات من القتال الضارى.

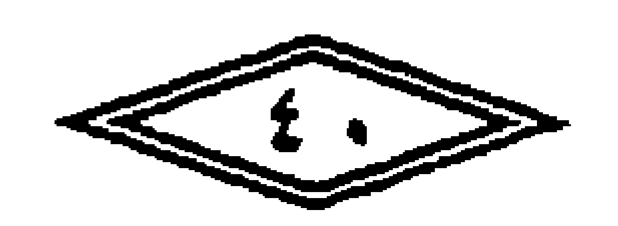


انتهت واقعة "قونيه" بهزيمة الجيش التركى بعد سبع ساعات من القتال وخسر العثمانيون ثلاثة آلاف قتيل، وأسر قائدهم ومعه نحو ستة آلاف ضابط وجندى، واستولى المصريون على ٤٦ مدفعا والكثير من السلاح والذخيرة. وخسر الجيش المصرى ٢٦٢ قتيلا و٥٣٠ جريحا.

انفتح الطريق إلى الأستانة أمام إبراهيم باشا. كان بينه وبين عاصمة الإمبراطورية العثمانية، مسافة ستة أيام، لا يعترضه فيها جيش، وأحس السلطان بأن عرشه يتزلزل أما انتصارات الجيش المصرى وفناء جيوش السلطان العثمانى واحدا تلو الآخر.

كان انتصار إبراهيم باشا فى " قونيه " نذير خوف وقلق الدول الأوروبية من هذه القوة الفتية التى تجتاح أمامها جيوشا عثمانية أشد منها عُدة وأكثر نفرا. تحقق النصر بعد النصر فى أزمان قياسية لم تعرفها الحروب من قبل.

بدأت المسألة المصرية تظهر جليا بعد معركة "قونيه"، وتدخلت الدول الأوروبية لمؤازرة السلطان العثمانى بالضغط على محمد على باشا والتفاوض معه لإنهاء الحرب. وفى تلك الأثناء، واصل إبراهيم باشا زحفه، فاحتل "كوتاهية" على مسافة خمسين ميلا من الأستانة، وبعث بكتيبة من جنده استولت على مدينة "مغنيسيا" بالقرب من أزمير. أذعن السلطان العثمانى لطلبات إبراهيم باشا، وتدخل السفير الفرنسى بالأستانة فى المفاوضات بين

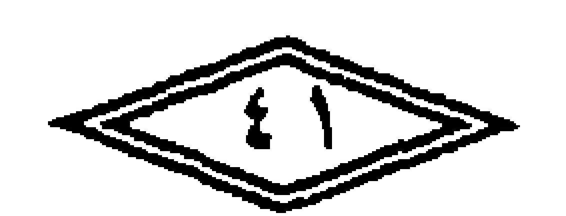


إبراهيم باشا ومندوب السلطان حتى تم توقيع إتفاقية "كوتاهية" فى ٨ إبريل ١٨٣٣ والقاضية بتخلى السلطان لمحمد على باشا عن سوريا وإقليم "أدنه"، مع تثبيته على مصروجزيرة كريت والحجاز، مقابل جلاء الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول.

أخذ إبراهيم باشا فى تنظيم الحكم فى سوريا بعد أن دخلت الشام فى حكم الدولة المصرية، وأصبح إبراهيم باشا حاكما عاما للبلاد السورية وقائدا للجيش المصرى. كان عمل بطل مصر الأول هو تأمين حدود سوريا الشمالية، بعد أن أقرّ الأمن والنظام فى ربوعها وأمّن الطرق لمنع اعتداء البدو على الأهالى وأملاكهم وسرقة محاصيلهم والاعتداء على حياتهم.

بدأ إبراهيم باشا عنايته بتأمين حدود سوريا الشمالية، بالقيام بتحصين مضايق جبال "طوروس" الفاصلة بين العثمانيين والشام، وقام بترميم وإصلاح حصون عكا وأسوارها، وأنشأ المستشفيات والثكنات وخطط الطرق الحربية، لتربط المواصلات بين الحاميات المصرية التى استقرت فى المدن السورية.

اختار إبراهيم باشا، أحد الأعيان السوريين (حنا بك بحرى) وجعله مديرا للشئون المالية فى الحكومة، تأكيدا لاتجاهه القومى بإشراك الشعب فى حكم نفسه. وقام إبراهيم باشا بتعين حاكما من أعيان كل بلد لتولى إدارتها

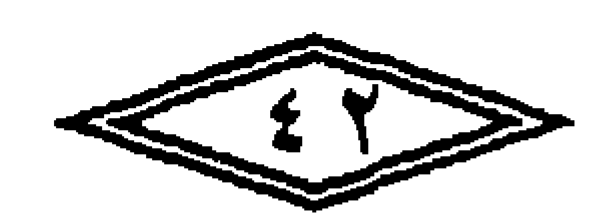


وإنشاء ديوان المشورة فى كل مدينة يزيد تعدادها عن عشرين ألف نسمة.

لقد استوجبت ادارة الشئون الحكومية فى سوريا من إبراهيم باشا، اختيار المتنورين من أبنائها، فأوجدت صلة دائمة بين مصر وسوريا، وأدخلت روحا علمية إلى البلاد، فقد انشأ المصريون محجرا صحيا فى بيروت، وأنشأوا مصارف للمياه الراكدة فى دمشق.

وعد إبراهيم باشا السوريين بأن يعفيهم من التجنيد خفيض الضرائب عليهم فلا يكلفهم إلا بدفع الأموال الأميرية فقط. وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة فشعر السوريون بالاطمئنان إلى حكم مصر وتعاونوا معه. وسار إبراهيم باشا على سياسته تلك، حتى تلقى أوامر والده محمد على باشا فى أوائل عام ١٨٣٤ بالقيام بعدة إجراءات أثقلت كاهل السوريين بأعباء فادحة.

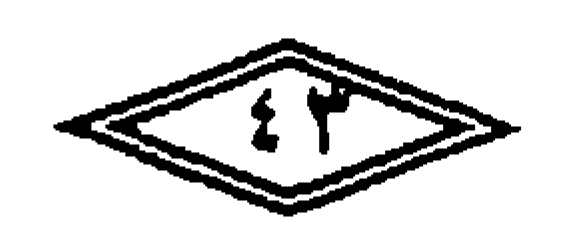
قرر محمد على باشا احتكار الحرير فى سوريا، وأخذ ضريبة الرءوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم، وتجنيد الأهالى، ونزع السلاح من ايديهم. وقد استاء السوريون من تلك القرارات. منتجوا وصنّاع وتجار الحرير فقدوا الاهتمام بفقدان حريتهم فى العمل والربح وتذمر المسلمون الذين لم يلتزموا من قبل بضريبة الرءوس التى كانت تجبى من أهل الذمة فقط. وكان التجنيد ونزع السلاح من أهم أسباب استياء أهل سوريا.



وفوق ذلك كله من السخط الذى عم فئات السوريين كلها، كان الإنجليز والعثمانيون، يشجعون أهل سوريا بالثورة على حكم المصريين. نجحت كل هذه العوامل فى اندلاع الثورات والاضطرابات فى أنحاء القطر السورى بدءا من فلسطين إلى دمشق إلى طرابلس ثم إلى "النصيرية" ثم "حوران" حيث الدروز، لكن إبراهيم باشا كان قادرا على إخماد تلك الثورات واحدة بعد الأخرى، رغم ما سببته من متاعب ومشاق للجيش المصرى فى الإقليم السورى.

كانت انجلترا تحرّض السلطان العثمانى على عدم الإذعان لمطالب محمد على باشا، وتقوم بتأليب الدول الأوروبية الأخرى على والى مصر، وتمارس فى نفس الوقت تحريك عملائها فى سوريا لخلق الاضطرابات والفتن فيها ضد إبراهيم باشا وجيشه المصرى. قامت انجلترا بتوقيع معاهدة تجارية مع السلطان عام ١٨٣٨ من شروطها إلغاء نظام الاحتكار فى ولايات السلطنة، وكانت مصر هى المقصودة من ذلك الشرط.

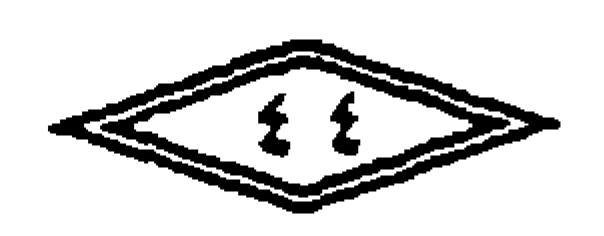
حاولت الدولة العثمانية إجراء مفاوضات مباشرة مع محمد على باشا لتسوية الخلاف بينهما عام ١٨٣٧ لكنها أخفقت. ووجد محمد على باشا أن دسائس العثمانيين فى سوريا قد ازدادت، فاستدعى وكلاء الدول الأوروبية بمصر فى مايو ١٨٣٨ وأعلنهم بعزمه على إعلان استقلال



مصر. كان يعتقد أن أوروبا سوف تعامل مصر كما فعلت مع اليونان عندما ساندتها للحصول على استقلالها،لكن خاب ظن محمد علي باشا. حذرته أوروبا من إعلان الاستقلال وبدأت فى تحيزها للسلطان العثمانى بوضوح وصراحة.

ظلت الدولة العثمانية منذ هزيمتها أمام إبراهيم باشا فى "قونيه" تتحين الفرصة للانتقام من المصريين واسترجاع الشام ومصر لحكمها المباشر. وكانت انجلترا ودسائسها وراء إزكاء روح الانتقام من مصر فى نفوس السلطان العثمانى ورجاله. تزودهم بالنصح والسلاح وإرسال العملاء إلى الشام لتحريض أهلها ضد الحكم المصرى. ظل السلطان العثمانى سنوات يعيد بناء الجيش الذى تشتت تحت ضربات جيش مصر بقيادة بطلها إبراهيم باشا.

جاء يوم ٢١ إبريل عام ١٨٣٩، فعبرت القوات العثمانية نهر الفرات، فبعث إبراهيم باشا إلى أبيه يسأله الرأى السياسى فى هذا العبور العثمانى، مع إخطاره بأنه قام بحشد قواته فى حلب استعدادا للهجوم العثمانى المتوقع. وجاء رد والى مصر محمد على باشا سريعا، وقد أيقن عزم العثمانيين على الحرب، بإرسال وزير حربيته " أحمد باشا المنكلى " على رأس مدد عسكرى، ومعهم كل ما يلزم الجيش من ذخائر، إلى إبراهيم باشا فى حلب.

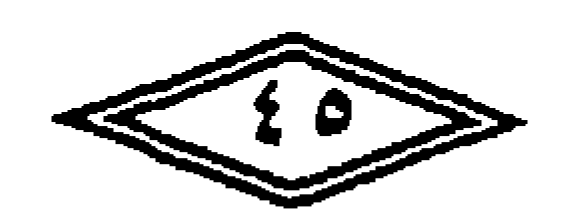


اجتازت سرية من الجيش العثمانى نهر "الساجور" الذى حددته اتفاقية "كوتاهية" بأنه الخط الفاصل بين مصر وتركيا، واحتلت السرية العثمانية قرية "تل مباشر" وقتلت وأسرت حاميتها المصرية المؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى المصريين. فقام إبراهيم باشا بالزحف على القرية ففرّ منها العثمانيون. تلقى إبراهيم باشا من محمد على رسالة يقول له فيها:

- لا تكتفى يا إبراهيم بإرجاع الأتراك إلى الحدود، بل حاربهم واسحق جيشهم مادموا لم يراعوا العهود والمواثيق.

عندما قرأ إبراهيم باشا رسالة أبيه، أصدر أوامره بالاستعداد للهجوم على الجيش العثمانى الذى احتشد فى "نصيبين" وقام ضباط ألمان بتحصينها وعلى رأسهم البارون "دى مولتك" الذين اشتركوا مع الجيش العثمانى البالغ عدد جنوده ٣٨ ألف مقاتل، يساندهم الدروز وعربان المنطقة.

استكشف إبراهيم باشا مواقع العثمانيين فى "نصّيبين" كعادته ووجد استحالة اختراق الاستحكامات التى أعدها العثمانيون، فقرر الالتفاف حولهم. تحرك جيش مصر ليلا يعبر الأنهار والسهول والمرتفعات على مدى ثلاثة أيام حتى أصبح يواجه مؤخرة الجيش العثمانى الذى استدار

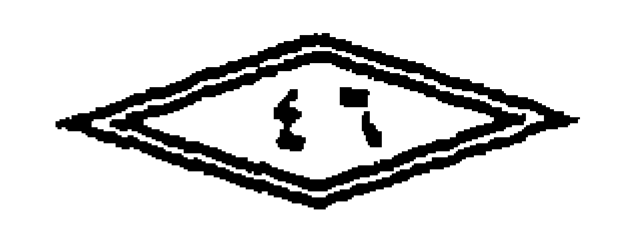


وهو يقيم استحكاماته على عجل فى ظهره المكشوف لمواجهة جيش إبراهيم باشا الذى جاءهم من الخلف.

احتل إبراهيم باشا أحد التلال المشرفة على الجيش العثمانى ونصب مدافعه فوقه، وبدأت المعركة يوم ٢٤ يونية ١٨٣٩، فقام الجيش المصرى بالهجوم على ميسرة العثمانيين حتى استطاع تشتيتها، ثم اشترك الجيشان فى حرب ضروس، تجلت فيها عبقرية إبراهيم باشا الحربية التى أشاد بها القواد الأوروبيين خلال تلك المعركة التى انتهت بانتصار جيش مصر، وفقد فيها العثمانيون أربعة آلاف قتيل وأسر خمسة عشر ألف ضابط وجندى، واستولى المصريون على عشرين ألف بندقية و٧٤ مدفعا وخزينة الجيش العثمانى وبها ستة ملايين فرنك. وخسرت مصر نحو أربعة آلاف قتيل وجريح.

قضت واقعة نصيبين على قوة تركيا الحربية وأنقذت مصر من الخطر الذى يتهددها من ناحية الدولة العثمانية.

تقدم إبراهيم باشا عقب انتصاره فاحتل القرى الواقعة على الحدود وطهرها من فلول العثمانيين الذين فروا إليها هربا من هزيمة "نصيبين"، إحدى الملاحم الحربية التى سطرها تاريخ جيش مصر العظيم تحت قيادة بطل مصر إبراهيم باشا.



6

هزّت هزيمة العثمانيين فى "تصّيبين" وانتهاء العسكرية العثمانية وموت السلطان محمود وهروب الأسطول العثمانى ولجوئه إلى الإسكندرية، دول أوروبا على اختلاف اتجاهاتها. انتهزت روسيا الفرصة وفرضت حمايتها الفعلية على الدولة العثمانية بحجة الدفاع عنها. أما فرنسا فقد ساندت محمد على باشا فى ضرورة تطبيق إتفاقية " كوتاهية ". وجاهرت انجلترا بالعداء لمصر وتأليب الدول على حكم محمد على باشا.

انتهت مساعى انجلترا العدائية بإرسال مذكرة من الدول الأوروبية إلى السلطان العثمانى، واشتركت فرنسا مع تلك الدول، وهى التى كانت تشجع محمد على باشا على الوقوف ضد العثمانيين والدول الأوروبية الأخرى التى تحرضها انجلترا. وهكذا وضعت أوروبا السلطان العثمانى تحت وصايتها الفعلية عن طريق تلك المذكرة التى ضمنت فيها سلامة تركيا.



ظلت إنجلترا وراء فرض وجهة نظرها على الدول الأوروبية الأخرى حتى تم عقد مؤتمر لتلك الدول انتهى بتوقيع معاهدة لندن، التى وضعت شروطا مجحفة بمصر ومحمد على باشا، واعتمدت فى الشروط التى وضعتها على عناد محمد على باشا فى قبول شروط المعاهدة، وهو الذى اعتمد على الوعود الفرنسية فى مساندته ضد الدول الأخرى. لم يتعظ محمد على باشا من التآمر الأوروبى، وخاصة الإنجليزى والفرنسى، الذى وضح فى معركة " نوارين " البحرية واشتراك فرنسا مع إنجلترا فى ضرب الأسطول المصرى.

رفض محمد على باشا معاهدة لندن، فبدأت الحرب بين الحلفاء، وبين الجيش المصرى فى الشام. اعتمد الإنجليز على أسطولهم الذى بدأ فى ضرب بيروت، دون مخاطرة بقتال المصريين على البّر، حتى تهدمت المدينة وأخلاها الجيش المصرى، فاحتلها الحلفاء.

استطاعت إنجلترا أن تقوم بتهريب ثلاثين ألف بندقية إلى الدروز ومن يشايعهم من الأكراد والعربان، فبدأوا فى مناوشة الحاميات المصرية المنتشرة على طول الساحل، فصار المصريون أمام نار ضرب الأسطول الإنجليزى من البحر، ونار بنادق الدروز من خلفهم حتى تحرّج موقف الجيش المصرى فى الشام، مما اضطر إبراهيم باشا



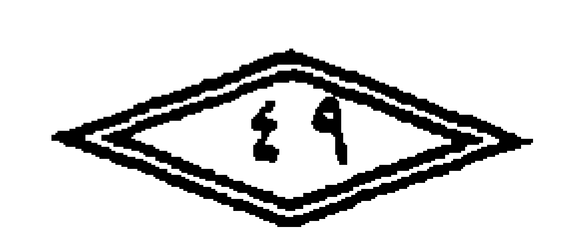
إلى سحب جنوده وتجميعهم فى "عكا " و" دمشق " وبعض المدن الحصينة الأخرى البعيدة عن البحر.

إحتل الحلفاء بيروت، وصيدا وصور والمدن الساحلية التى أخلاها المصريون وبدأوا فى حصار "عكا" من البحر وضربها دون هوادة لمدة ثلاثة أيام دون فائدة وفجأة، دوى انفجار هائل داخل " عكا " بفعل انفجار مخزن السلاح بها.

هدم الانفجار ثلث مبانى المدينة، وأفنى طابورا كاملا من جنود مصر، ولم يجد قائدها بعد هذا الحادث الجلل أن لا طائل من استمرار المقاومة فى " عكا "، فقام بالانسحاب منها حفاظا على باقى الجنود الموجودين بها. واحتل الإنجليز والأتراك " عكا " يوم ٤ نوفمبر ١٨٤٠، فى اليوم التالى لانسحاب جيش مصر منها.

هزّت تلك الفاجعة موقف الجيش المصرى فى المدن المتباعدة. كما استطاع الأسطول الإنجليزى قطع الطرق البحرية على الجيش المصرى ومنع وصول أى مدد له عن طريق البحر.

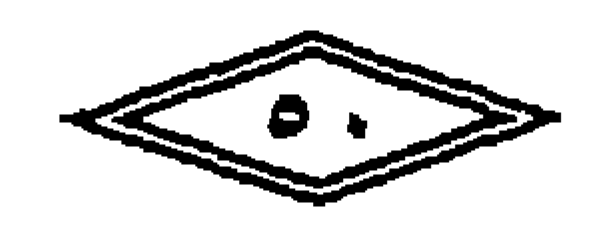
جاءت مهمة الكومودور الإنجليزى "نابييه" إلى الإسكندرية، يقود أسطولا فى محاولة لاحتلال المدينة، وعرف بعد استطلاعه لتحصين محمد على باشا للإسكندرية أنه ن المستحيل أن يحاول النزول إلى البر، أمام القوة المصرية التى استعدت لاستقباله وإفنائه.



وعلم محمد على باشا بالموقف الصعب الذى يواجهه ابنه إبراهيم باشا وجيشه فى سوريا بعد سقوط " عكا " والموانئ الساحلية فى الشام، فقرر قبول العرض الذى قدمه الكومودور الإنجليزى، بسحب جيشه من سوريا وإعادة الأسطول العثمانى إلى تركيا، مقابل حق ملك مصر الوراثى بضمان الدول الأوروبية.

قامت إنجلترا بالضغط على السلطان العثمانى والدول المتحالفة معها، حتى استجاب السلطان لطلب الإنجليز وأصدر فرمانا بمنح محمد على باشا حكم مصر وراثيا، فأرسل محمد على باشا إلى ابنه إبراهيم باشا يأمره بالجلاء عن سوريا والعودة إلى مصر تنفيذا لاتفاقه مع الكومودور " نابييه ".

كان إبراهيم باشا موزع العواطف وهو يتلقى أوامر أبيه محمد على باشا بالانسحاب من سوريا والعودة إلى مصر بعد نحو ثمان سنوات قضاها فى ربوعها، يفتح بلادها ويقاتل العثمانيين والثوار، ويضع أسس الإدارة المتحضرة والنظام فى تلك الأراضى التى لم تعرف سوى القبلية والفوضى خلال الحكم العثمانى الغاشم لها على مدى قرون طويلة، مارست فيها سلطة الحكم العثمانى الغاشم على مدى قرون طويلة، وطبقت عليها سلطة الحكم المطلق القهرى الظالم.

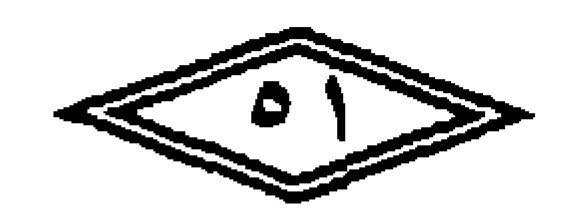


ولقى إبراهيم باشا خلال وجوده فى سوريا ثورات وقلاقل الدرور والعربان والأكراد، الذين كانوا يجدون فى الحكم العثمانى ما يحقق أغراضهم من السلب والنهب وفرض الإتاوات على شعب سوريا الذى لا حول له ولا قوة، يشابه ما كان المصريون يلاقونه خلال سيطرة المماليك على مقادير مصر بما يمارسونه من ظلم واضطهاد لشعبها، وسرقتهم ونهبهم وقتلهم.

فقد كان نظام الشورى الذى طبقه إبراهيم باشا فى سوريا ومحاولته خلق كوادر سورية إدارية – يتعارض مع مصالح أولئك الشراذم من المتمردين الفوضويين الذين جُبلوا على النهب وفرض قوتهم على شعب تلك المنطقة.

مرّت السنوات الثمان أمام مخيّلة بطل مصر إبراهيم باشا وهو يفكر فى كيفية تنفيذ تعليمات محمد على باشا بالانسحاب، تاركا وراءه كل الأعمال والبطولات التى تحققت على يديه خلال تلك الفترة من عمره. لم يفكر فى البطولات التى حققها فى سوريا والأناضول بفضل حكمة قيادته وشجاعته وحب جنوده وإخلاصهم لقائدهم، بل كان كل همّه أن يكون انسحابه سريعا ومشرّفا وأن يصل بجنوده سالمين إلى مصر.

أصدر إبراهيم باشا أوامره، بتجميع جيوشه فى دمشق. سبعون ألف جندى مصرى، تجمعوا فى معسكراتهم حول دمشق استعدادا للعودة إلى مصر. قسم إبراهيم باشا الجيش



إلى ثلاث فيالق. كان الفيلق الأول بقيادة أحمد باشا المنكلى، وسار فى طريقه إلى غزه فالعريش وكان مؤلفا من المشاة والفرسان النظاميين. أما الفيلق الثانى فكان تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوى ويتكون من قوات المدفعية، واتخذ فى عودته طريق الحج الذى يصل من العقبة حتى السويس. وقاد إبراهيم باشا الفيلق الثالث الذى سار إلى غزة ثم منها بحرا حتى مصر، وتكون الفيلق من جنود الحرس وفرسان الهنادى والباشبوزق الذين تحتاج قيادتهم إلى قائد يمكنه السيطرة عليهم، ومن غير إبراهيم باشا بطل مصر يمكنه ذلك؟

اصطحب إبراهيم باشا معه، الموظفين المدنيين المصريين بسوريا وعائلاتهم، وكذلك السوريين الذين أصروا على مصاحبة الجيش فى عودته إلى مصر.

كانت المصاعب والأهوال هى التى قابلت فيلق أحمد باشا المنكلى، الذى تعرض خلال مسيرته الطويلة إلى هجمات العربان ومناوشتهم من جهة، ونقص الغذاء والماء،فهلك نحو نصف جيشه عندما وصل إلى مصر.

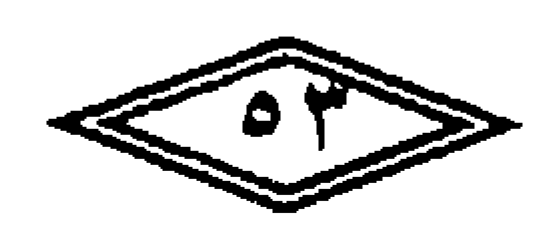
أما فيلق سليمان باشا الفرنساوى، فلم يلق مثل ما لقيه أحمد باشا المنكلى، لكنه تعرض للجوع والعطش ففقد من رجاله نحو ألف وخمسمائة جندى.

وكان فيلق إبراهيم باشا قد واجه فى طريقه مصاعب جمة هو الآخر وخاصة لدفع هجمات العربان وصعوبة

الحصول على الطعام والماء لجنده والمدنيين الذين صحبوا الجيش فى انسحابه، لكنه وصل إلى غزة، فبعث إلى أبيه لموافاته بالمؤن والملابس، التى بليت خلال الانسحاب الطويل الذى استمر لأكثر من شهر ونصف يقامون فيها البرد والجوع والعطش ونزال الثائرين. جاءت السفن بالطعام والملابس، ورحل إبراهيم باشا عن " غزة " يوم ١٩ فبراير عام ١٨٤١ وبذلك تم إخلاء الجنود المصرية لسوريا.

عاش إبراهيم باشا فى مصر، منذ عام ١٨٤١، يساعد محمد على باشا فى أمور الحكم وإدارة الحكومة، وعندما ازدادت حالة الاكتئاب لدى أبيه محمد على باشا، وابتعد الوالى عن تصريف أمور الدولة بعد اعتلال صحته، حزنا وكمدا على ما أصاب آماله الكبار والمجد الذى نالته مصر من فشل، كان إبراهيم باشا موجودا مكان أبيه، يحاول إعادة ترتيب الديارالمصرية، بما يتوافق مع آرائه العربية وإيمانه بالمصريين الذين خبرهم جيدا فى ميادين القتال التى خاضها.

قام إبراهيم باشا، بتوزيع الأراضى الزراعية الشاسعة على قادة جيشه لإصلاحها وزراعتها، ومنح الفلاحين مساحات مختلفة من الأرض الزراعية لزراعتها، فى محاولة لكسر الاحتكار الذى فرضه أبوه محمد على باشا،



لكن دون إعلان عن إلغاء النظام، احتراما لرأى محمد على باشا.

عندما تأكدت الأسرة المالكة من عجز محمد على باشا عجزا تاما عن الظهور فى الحياة العامة نظرا لاشتداد علته، قرروا تعيين إبراهيم باشا واليا على مصر خلال حياة أبيه، فتولى الحكم فى إبريل عام ١٨٤٧ لكن القدر لم يمهل مصر كثيرا، فمات إبراهيم باشا فى العاشر من نوفمبر من نفس العام.

وكأن القدر، ادّخر لمحمد على باشا، أن يرى بنفسه موت أبنائه الثلاثة فى حياته، قدم الرجل دماء أولاده الأبطال فداء لمصر ولأرض مصر. وكان إبراهيم باشا، أكبر أولاد محمد على باشا سنًا وبطولة وشجاعة، هو آخر من مات من أولاد محمد على باشا المولودين خارج مصر فى حياته.

* * *



7

عندما سكت المدرس عن الحديث، لاحظ أن طلبته يحركون شفاههم، يترحمون على بطل مصر إبراهيم باشا. قال لهم:

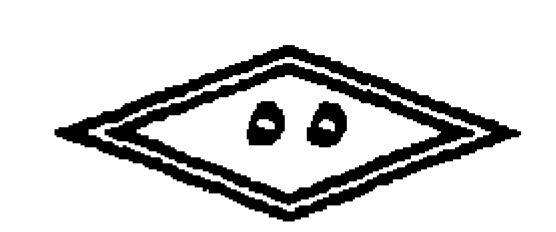
– أتترحمون على بطل مصر؟

هزّ الطلبة رؤوسهم إيجابا، فقال مدرسهم:

– نعم. لقد كانت بطولات هذا الرجل العظيم هى التى رسخت معنى استقلال مصر عن الدولـــة العثمـــانية ورغم أن الاستقلال فى ذلك الوقت كان فعليا فـــقط دون الشكل القانونى، لكنه استطاع بهزيمته للعثمانيين فى كل المواقع التى خاضها أن يهدد عرش السلطان نفسه وأن يفرض عليه قبول مـــنح مصـــر استقلالها وحكم أسرته الوارثى لمصر.

إستأنف المدرس حديثه قائلا:

– لابد لنا أن نذكر هنا قادة جيوش مصر الذين ساعدوا إبراهيم باشا فى حروبه، وعلى رأسهم سليمان باشا



الفرنساوى، الذى لازم بطل مصر فى كل المعارك وكان له خير معين. كان إبراهيم باشا يطلب من سليمان باشا تنفيذ أشق المهام فى الحروب، وكان الرجل مثالا لطاعة قائده وشجاعا ومقداما.

تحدث أحد الطلبة قائلا:

- هناك أمر يشغل بالى يا أستاذ.لقد لاحظت أنه كلما زادت انتصارات إبراهيم باشا فى المعارك، تقع حادثة لانفجار مخزن ذخيرة جيشه. أليس بشئ غريب؟

قال المدرس:

- بالفعل يا بُنىّ. لقد انفجر مستودع ذخيرة إبراهيم باشا عند حصاره للدرعية خلال حربه مع الوهابيين وفى مرحلتها الأخيرة. كذلك انفجر مخزن ذخيرة الجيش المصرى فى شبه جزيرة الموره قبل حادثة الغدر فى إغراق أسطول مصر فى خليج "نوارين"، ثم تكررت للمرة الثالثة فى "عكا". يدفعنا هذا إلى تصور الخيانة فى تدبير هذه الانفجارات. كانت أيدى اليهود وراء انفجار مخازن ذخيرة "نوارين"،

ووراء انفجار عكا بلا شك، فالمدينتين كانتا تعجّان باليهود. كل المؤرخين عللوا الانفجارات بسقوط قذيفة وسط المستودعات المصرية. إنه شئ بعيد عن التصور. إن إبراهيم باشا الذى تعود أن يخطط لكل شئ فى



معاركه، لا يمكن أن يغفل عن حماية مخازن ومستودعات ذخيرته، ويتركها عرضة لسقوط قذيفة فـوقها. كان تخريبا ولاشك يا أبنائى.

تساءل أحد الطلبة عن أعمال إبراهيم باشا خلال الفترة التى أمضاها فى مصر بعد عودته من سوريا، فقال له مدرسه:

- قلت لكم أنه شغل نفسه بإدارة الحكم فى مـصر بدلا عن أبيه محمد على باشا الذى اعتـلت صحته بسبب الغدر الذى أوقعته فيه فرنسا وانجـلترا. وبالنظر إلى استمرار الحكم الإسمى لمحمد علـى باشا خلال تلك الفترة، فإن أعمال بطل مصر ونتائج إدارته، نسبت إلى أبيه محمد على بـاشا. حـدثتكم عن تخفـيف إبراهيم باشا لنظام الاحتكار الذى فرضه أبوه عـلى الأرض الزراعية، وكذلك قام إبـراهيم باشا بتخفيف قبضة الحكومة على الصناعة والتجارة.

تحدث أحد الطلبة قائلا:

- نريد ان نعرف ما الذى حدث لمصـر بعـد مـوت إبراهيم باشا ومحمد على باشا.

ابتسم المدرس وقال:

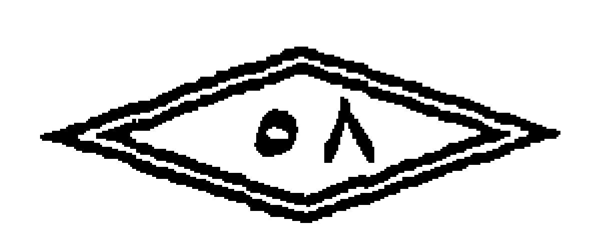
- نعم. هذا هو حق جيلكم فى معرفة تاريخ مصر فى تلك الفترة. لكنه تاريخ طويل وعظيم يحـتاج منا إلى

أحاديث طويلة. أعدكم أن شاء الله بالحديث عن الخديوى إسماعيل بن إبراهيم باشا الذى جعل من مصر دولة لاتقل حضارة عن أى دولة أوروبية أخرى ونقلها من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. لكم منى وعد بذلك.

قال الأستاذ لطلبته:

– لقد تأخر الوقت، فهيا بنا الآن.

* * *



المراجع

(١) كتاب (عصر محمد على) - عبد الرحمن الرافعى مؤرخ مصر العظيم.

(٢) كتاب (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) بإشراف مانتران - الذى كتبه مجموعة من الباحثين الفرنسيين.



ISBN 978-977-287-969-8
9 789772 879698

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين- القاهرة
☎ ٢٧٩٥٤٢٣٩
www.sbhegypt.org
e-mail : sbh@link.net
: Info@sbhegypt.org